

٣

رسائل صليبية من الأرض المقدسة

(١٢٨١)

تعود الأصول المخطوطة، التي اعتمدت عليها هذه الترجمة إلى مجموعة تعرف باسم: «الرسائل الملكية»، وهي محفوظة في مكتب حفظ السجلات الملكية، وتتألف هذه الاصول من رسالتين، أرسلت الرسالة الأولى من قبل السيرجوزيف دي كانسي، الذي كان فارساً من فرسان مشفى القديس يوحنا في القدس، إلى الملك أدوارد الأول، وحملت هذه الرسالة إلى الملك «أخباراً من سورية»، أما الرسالة الثانية فكانت من الملك ادوارد إلى السيرجوزيف، يشكره فيها على التقرير الذي قدمه له بشأن تطور الأحداث في الأرض المقدسة، وقد جرى كتابة الرسالتين على الرق، ووضعها الخارجي ممتاز، وتشكلان تحفة فنية بالنسبة للخط، لكنها لسوء الاستخدام طوال العصور كادت أن تفسدا حتى بات من الصعب قراءتها بشكل صحيح، ولهذا جاء نسخها بعد صعوبات جمة، وتاريخ هاتين الرسالتين مرتبط بأواخر أيام الوجود الفرنجي في سورية واحتلال بعضها، وكتبت الرسالة في المدينة التي قدر لها أن تكون بعد سنوات قليلة مسرح آخر الصراعات الحادة بين المسلمين والفرنجة.

إنها مدينة عكا، التي عرفت باسم عكو لدى الفينيقيين، ثم أطلق عليها الاغريق اسم بطليمياس Ptolemias ، وبعد هذا عرفت بالعربية باسم عكا، ذلك أنها فتحت من قبل العرب المسلمين في سنة ٦٣٦م، وبعد هذا بقرون استولى عليها الصليبيون بقيادة بلدوين الأول سنة ١١٠٤، وكان بلدوين أول ملوك اللاتين في القدس، وقد استردها صلاح الدين من أيدي الفرنجة ١١٨٧، ثم عادت واستسلمت لرتشارد قلب الأسد والملك فيليب أغسطس سنة ١١٩١، وقد بقيت منذ ذلك التاريخ حتى سنة ١٢٩١ بأيدي الصليبيين، حيث صارت مقراً للملكة القدس.

وحمل في سنة ١٢٣٦ الايرل رتشارد أوف كورنول شارة الصليب وشاركه في ذلك عدد من النبلاء الانكليز، وكان من هؤلاء الايرل

مارشال، وإيرل تشستر وسالسبري، والسير رالف لوسي، والسير رتشارد سيوورد، وقد تأخرت مغادرة هؤلاء نحو عكا حتى أحد الشعانين في سنة ١٢٤٠، وقد وصل الأيرل رتشارد إلى عكا في ١١ تشرين الأول، غير أن إقامته في الأرض المقدسة كانت قصيرة جداً، حيث عقد هدنة مع سلطان القاهرة، ثم قام في الثالث من أيار من السنة التالية بمغادرة عكا، وذلك بعدما متن تحصينات قلعة عسقلان، وجمع عظام الصليبيين الذين قتلوا في الحرب، وتولى دفنهم في مقبرة بناها على حسابها الشخصي، وقد نزل في طريقه في صقلية، ووصل بعد هذا إلى انكلترا في اليوم الأول من شهر شباط لسنة ١٢٤٢، وكان من بين الفرسان الذين رافقوه: السير هيويوك، والسير روبرت مارميون، والسير دي بروس، والسير غويسكارد ليديت Leideit، والسير يوستاس دي ستوتفيل Stuteville، والسير هام-بوكشي Ham-opecche، والسير بلدوين دي بيتون Bettuen، والسير جون فترزجون، والسير جونفترزجون، والسير جون بيوليو Beaulieu، والسير جيرارد فورنفال Furnival، وغيوفري أخو الأيرل رتشارد، وعدد كبير آخر، كانوا قد هلكوا في هذه الحملة.

وجرى في سنة ١٢٥٢ جلب عظام وليم صاحب السيف الطويل، إيرل سالسبري إلى عكا للدفن فيها، وكان قد قتل في معركة المنصورة سنة ١٢٥٠.

وفي سنة ١٢٦٨ حمل الأمير ادوارد الانكليزي شارة الصليب، وفعل ذلك معه ابن عمه هنري، وابن الأيرل رتشارد، وعدد كبير من اللوردات الانكليز، وتم تدبير قرض مالي قدره ٣٠,٠٠٠ مارك من الملك لويس ملك فرنسا، مقابل رهن موارد بوردو، وكان الهدف من ذلك الانفاق على الحملة الصليبية، وانطلق الأمير من بورتشمورث في أيار ١٢٧٠ ومعه زوجته الأميرة اليانور، وفي بوردو أقبل معها على ظهر

اسطول كان ينتظرهما في ايغوس — مورت Aigues- Mortes — وكان وقتها ميناء بحريا مع أنه الآن جزيرة بسبب تراجع البحر عدة أميال — بغية الالتحاق بالملك لويس أمام تونس، ومات الملك الفرنسي يوم ٢٥ آب من السنة نفسها، وتخلّى ابنه فيليب الجرىء عن الحصار بعد ذلك بوقت قصير، ورجع إلى فرنسا، وبذلك ترك الأمير ادوارد بلا تأييد، وكان هذا الأمير مصرّاً على الاستمرار، حتى أنه عندما حاول أحدهم ثنيه عن قراره، ضرب صدره، وأقسم «بدم الرب»، بأنه سوف يذهب إلى عكا، حتى لو هجره الجميع وتخلّو عنه، باستثناء غلامه فووين Fowin، وتعرض الأمير في سنة ١٢٧٢ لمحاولة اغتيال، وقتل المهاجم، وجرت معالجة الأمير الجريح، حيث قامت زوجته اليانور بلعق السم من حول جرحه بلسانها، والتأم الجرح فيما بعد، ولم يحدث للزوجة أي ضرر.

وعانى الجيش الانكليزي من مصاعب كبيرة، فقد تخلّى عنه جميع الحلفاء، وفتك المرض بأفراده، ولم تصل أية مؤن من فرنسا، لهذا وجد الأمير ادوارد نفسه مرغماً على عقد هدنة مع السلطان لمدة عشر سنوات، وعشرة أشهر، وعشرة أيام، وعاد إلى انكرا عبر ايطاليا وفرنسا، وكان والده قد توفي في تلك الأثناء، وأعلن هو ملكاً، مع أن الناس كانوا لا يعرفون فيما إذا كان حياً، ذلك «أنه ذهب إلى بلاد بعيدة، قائمة فياوريا البحار، من أجل حرب أعداء المسيح».

واستحوذ السلطان بيبرس على العرش، بعدما قتل بيديه السلطان المظفر قطز في أثناء الصيد، ومالبت بعد هذا أن خرق الهدنة، وقام — حسبما جاء في مخطوط أرمني قديم — باجتياح سهل أرمينيا، فجعل كل من لقيه طعمة للسيف، حيث بلغ عدد القتلى أكثر من مائتي ألف، والأسرى أكثر من عشرة آلاف، وعدد الخيول والحيوانات الأخرى ما يزيد على ثلاثمائة ألف رأس، وأرغم ملك أرمينيا على التراجع إلى

الجبال، ولجأت أعداد من رعيته إلى الفرار بحراً، وكذلك فعل عدد كبير من التجار ومن الذين نجوا من المسلمين، غير أنهم وقعوا في أيدي القرصان واللصوص.

ويحكى أن السلطان بيبرس نال في سنة ١٢٧٦ نصراً عظيماً على المغول الذين قادهم منكوتمر - أخو أبغا خان، حاكم المغول - مع حليفه ليون الثاني ملك أرمينيا، وحدث ذلك في سهول حمص، غير أن مؤرخاً أرمينيا من القرن الثالث عشر هو الراهب هيتوم، حفيد الملك هيتوم الأول، وسلف ليون الثاني على عرش أرمينيا، وكان أثيراً عند البابا كليمنت الخامس، حيث منحه ديراً في بواتيه، ليتمكن وهو مرتاح، من الكتابة عن عجائب البلدان، التي كانت المعلومات وقتها قليلة عنها، قال في كتابه «خلاصة تواريخ الشرق» بأن بيبرس قد هزم في هذه المعركة، لكنه مالبت أن تعافى مما عانى منه، وأنه جرت بعد أربع سنوات معركة أخرى قرب ضريح خالد بن الوليد بين خليفة بيبرس، السلطان الملك المنصور قلاوون والمغول بقيادة منكوتمر وأبغا، وأن المعركة استمرت من الصباح حتى المساء، وكانت النتيجة - تبعاً لهذا المؤرخ - هزيمة كاملة للمغول، وطرد لهم من البلاد، وكان من نتائجها أن منكوتمر قد توفي بعد أمد قصير، بسبب غمه.

ومن المفترض أن هذه المعركة هي الموضوع الرئيسي الذي جرى الحديث عنه وروايته في الرسالة التي بعث بها جوزيف دي كانسي، الذي يبدو بأن الأمير ادوارد قد عهد إليه بمهمة تزويده بالمعلومات حول الأحداث التي كانت تقع في فلسطين، وذلك بعد مغادرته شخصياً للأرض المقدسة، ولا تحمل الرواية عن المعركة المعروضة هنا، تأكيداً بأنها انتهت بنصر عظيم للسلطان لكن حسبما وصفها دي كانسي وقصها، هناك شيء من التلوين فيها لصالح المغول، لأن الاستتارية كانوا قد عانوا كثيراً في تلك الآونة على أيدي المسلمين، لاسيما على

أيدي السلطان بيبرس، مع أنهم برهنوا على شجاعتهم في قتالهم ضده، وهو الذي بات مرعباً جداً الصليبيين في الشرق، ففي سنة ١٢٦٨ سقط تسعون من جنود الصليب هؤلاء، واحداً تلو الآخر في الدفاع عن قلعة أرسوف، وصمد في السنة التالية قسم منهم في بلدة أخرى لمدة شهرين ضده، فكان أن قتلوا جميعاً ولم يسلم منهم أحداً، وكان مقدم الاستتارية الذي ذكره دي كانسي هو نيكولاس لورغ *Lorgue*، وهو الذي قاد الاستتارية، أثناء الدفاع عن قلعة المرقب، التي وقعت على مسافة قريبة من ساحل البحر، وقد جرى الاستيلاء عليها من قبل قلاوون بعد حصار دام ثلاثة وثلاثين يوماً، وكان فتحها في شهر حزيران لعام ١٢٨٤، ويبدو أن أسرة دي كانسي كانت بين الأسر المعروفة، فقد عين الملك ستيفن وولتر دي كانسي بارونا لمقاطعة كانسي، وخلف وولتر هذا ابنه أوفرد *Aufrid*، وكان آخر بارونات هذه الأسرة سيمون دي كانسي، الذي تولى تحصين أراضيه لدى ثورته ضد الملك جون سنة ١٢١٥، وظهر اسم الأسرة في العهد التالي مراراً في أعمال محاكم التفتيش التي تعلقت بشكل رئيسي بأراض في لنكولنشير، ويوركشير، ففي إحدى القضايا التي عرضت في يورك سنة ١٣٠٤، ورد ذكر توماس دي كانسي على أنه بارون سكيربنيك *Skirpenbeck*.

ووفقاً لما أورده المؤرخ قطب الدين اليونيني، باتت أخلاق بيبرس بعد الحوادث المذكورة أنفأ، أخلاق ملك يمكن مقارنته بنيرون بشراسته، وبقيصر بشجاعته، ولكي يتجنب نبوءة قالت بأن أميراً كبيراً سوف يموت في تلك السنة، أتى بأمير من أسرة صلاح الدين، هو الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك، وكان أميراً شجاعاً، أثار بشجاعته غيرة بيبرس، وعمل على سمه، وقد جرى ترك بقية الخمر المسموم في حجرة السلطان بسبب الإهمال، فشرب منه بدون أن يعرف، فأصابته الحمى على الفور، ومرض ومات في قلعة دمشق في أيار عام ١٢٧٧،

ويحكى بأنه قتل ٢٨٠ من الأمراء لأنه شك بهم في أنهم حاولوا قتله، وجرى ذلك في أربع مناسبات.

وحكم قلاوون من بعده مدة أحد عشر عاماً، كانت كلها نجاحات متوالية ضد الفرنجة والمغول، وكان آخر نجاحاته الاستيلاء عنوة على طرابلس التي تولى إحراقها، ثم أعاد بناءها فيما بعد، وقد توفي سنة ١٢٩٠، وهو على نية الزحف ضد عكا، وكان قد قرر الانتقام لقتل بعض التجار المسلمين فيها، وقد توفي في خيمته خارج أسوار القاهرة ليلة الثاني من ذي الحجة، وجاءت وفاته بعدما أوصى ابنه الأشرف خليل أن لا يدفنه حتى يكون قد جعل من ذاته سيداً لعكا، وكان قلاوون شخصاً بهي الطلعة، وعظيم الاحترام، وقد قال بعضهم بأنه توفي نتيجة دس السم له من قبل واحد من الأمراء، وذكر المقرئ خبر وفاته، وأوضح أن ذلك قد حدث بعد إصابته بالحمى نتيجة مرض استمر عدة أيام.

أخبار من سورية

«إلى السيد الأكثر سموً ورفعة وقوة، مولاي إدوارد، الذي هو بنعمة من الرب، أعظم الملوك جدارة، ملك إنكلترا، وسيد إيرلندا، ودوق أكوئين، الذي الأعلى والأدنى عبيده، يقوم جوزيف دي كانسي الراهب المتواضع في بيت مشفى القديس يوحنا للقدس، المقيم في عكا، بالركوع في خدمة معاليكم، ويرسل تحياته.

التزاماً بما أمرتنا به سيادتكم الجديرة بالتقدير، في متابعة إرسال أخبار الحوادث التي تقع في الأرض المقدسة، نعلمكم يا مولاي، أنه بعد قدوم مقدمنا من طرابلس في نهاية شهر تشرين الأول، حسبما أخبرناكم برسالتنا التي كتبناها أثناء عبور الصليب المقدس، بأن حشود التتار وحشود المسلمين اقتربت من بعضها كثيراً، وبالنسبة للمسلمين فقد

باتوا بين رجالنا ورجال المغول، ولذلك لم نتمكن لانحن ولا أمير (أنطاكية، بوهيموند السابع) — ملك قبرص (هيو الثالث) لم يقدم بعد — من الالتحاق بالتتار، كما أنهم لم يرسلوا إلينا كي نلتحق بهم، بعد استقرارهم، وقسم السلطان جيشه الذي تألف من خمسين ألف من الخيالة إلى ثلاثة أقسام، ووقف هو نفسه مع القسم الأوسط، الذي يدعونه بالقلب حسب عاداتهم، وكان سنقر الأشقر صاحب صهيون وتخومنا العائدة للمرقب، قائد الميسرة، وتولى قيادة الميمنة تركي شجاع اسمه عز الدين أيبك الأفرم، ولدى رؤية التتار لصفوف المسلمين قاموا أيضاً بتقسيم قواتهم، التي بلغ تعدادها أربعين ألف خيال، إلى ثلاثة أقسام أيضاً، لأن قائدهم كان قد أرسل بقية رجاله إلى أخيه الأسن منه أبغا، الذي كان يزحف خلال البرية، متصوراً بأن أبغا سوف يصل إلى دمشق قبله، وكان في واحد من هذه الأقسام الثلاثة ملك أرمينيا، مع قواته وألفين من التتار، وألف جورجي، وتركي اسمه سنقر، صار تترياً، وهذا كان أيضاً مع جماعته التي بلغ تعدادها ثلاثة آلاف من رجال بلاده، الذين جلبهم من تركيا، والذين دعوا أنفسهم تتراراً، وما أن عبأ ملك أرمينيا قواته وصفها حتى ألقى بنفسه على ميسرة المسلمين، فحطمها وسبب هزيمتها حتى أن قليلاً منها هم الذين نجوا من السيف، وما كان لهذه الميسرة أن ينجو أحد منها لولا عدم إخلاص سنقر الذي هرب مع معظم أتباعه من دون أن يوجه ضربة أو يتلقى مثلها، وكان قائد ميمنة المغول منكوتر، وكانت هذه الميمنة تواجهه عن قرب ميمنة السلطان، وكان في الميمنة المغولية عشرة آلاف تترار و ذلك دون أن نحصي تعداد حلفائهم، ولقد هزم منكوتر هذه الميمنة، لكن هذه الهزيمة لم تكن بالدرجة نفسها التي نزلت برفاقهم في الميسرة، وبالتالي لم تكن هزيمة كاملة، وألقى منكوتر، الذي كان شجاعاً، وجريئاً، وفارساً معتمداً، بنفسه مع المتبقي من شعبه، على القسم الذي كان فيه السلطان، ثم تبع ذلك مذبحة هائلة، واستمر القتال من قبل

الساعة الثالثة حتى غياب الشمس، وحدث الآن أنه لولا قدرة السلطان وصبره، وحكمته وشجاعته لكان مصيره مثل المصير الذي لاقته الميسرة، ففي وسط المآسي التي أحاطت به، ولدى رؤيته الشور التي أحاقت برجاله حيث قتلوا، وشرع بعضهم بالفرار، أمر بأبواقه فزعقت وبنفاره فصوتت، فتحلق حوله الذين ظلوا أحياء، وبدون هؤلاء كان معرضاً للدمار، والذين أطاعوا نداءه من بين جميع قواته كانوا ستمائة رجل فقط، وكان قد خيل للتار بأن المسلمين قد هزموا تماماً، ولذلك اندفعوا نحو السلب والنهب، واستولوا على خيم السلطان وعلى خيم بقية المسلمين، كما وحصلوا على كميات هائلة من الأسلاب، ما من أحد قادر على تقويم قيمتها تماماً، وكان قد تبع الجيش أعداد كبيرة من السوق والعمامة، فحولوا بذلك المعسكر إلى ما يشبه المدينة المليئة بالناس، وقد قتل من هؤلاء عدد كبير جداً من غير الممكن معرفة قدره وتعداده، وحصل التار على كميات هائلة من الأسلاب بسبب سرعة تحركهم المذهلة، ولجشعهم العظيم كرجال، فقد امتطوا خيول المسلمين الذين ماتوا، وكانت أفضل من خيولهم، وتركوا خيولهم التعيسة خلفهم، واعلم يا سيدي مايلي: الذي يعد أمراً مدهشاً جداً، إنه لم يكن من الممكن معرفة كمية الغنائم التي أخذها كل طرف من الطرف الآخر، كما أنه من غير الممكن القول من قبل أي إنسان، من هو الذي جرح أو أصيب فيما بعد وكانت إصابته قاتلة (Onques piles niot trait d` une ni d` autre qui aconter face ni que nul puisse dire que nil fust feri ni nafre de pues a la mort) .

فلقد شاهد السلطان سحياً من الغبار قد تصاعدت بسبب الذين كانوا يعملون على المغادرة مع الأسلاب، فقدر أن ذلك قد تسبب التار به، فزحف نحو هذا الغبار، وكان منكوتر على مقربة منه، ولم يكن معه

سوى ستين رجلاً من الخيالة وليس أكثر من ذلك، وقد تقدم للقاء، ظاناً أن القادمين هم من رجاله: لأن ملكي أرمينيا وجورجيا كانا قد قدما مع أتباعهما ودخلا إلى بلاد المسلمين، وعندما رأى السلطان ورجاله منكوتمر، وتعرفوا إلى أتباعه وميزوهم من خلال شاراتهم، ظنوا أن هناك كميناً قد نصب لهم، وأن عرض هذه القوة الصغيرة ما هو إلا شرك لاستدراجهم. نحو الكمين، هذا من جانب، ومن جانب آخر عندما رأى منكوتمر مدى ضعف إمكاناته والمخاطر التي تنتظره من هجوم يقوم به السلطان، قام بالتراجع وذهب في طريقه، ولدى رؤية السلطان لما حدث، اعتقد أنه قد عاد لحث جيشه كله على التقدم، ولهذا تراجع مسرعاً، وفرق الليل فيما بينهما بعد ذلك، وهكذا لم يربح أي واحد من الطرفين المعركة، ولكن بما أن السلطان كان الأخير بالتراجع، اعتقد الناس أن النصر كان من نصيبه، ومع هذا يمكن للانسان أن يقول بشكل يقيني إنه منذ الاستيلاء الأول على بلادهم، لم يتلق المسلمون ضربة بمثل هذه القسوة، ولا هزموا مثل هذه الهزيمة.

وعاد ملك أرمينيا مع شطر كبير من قواته نحو ساحة المعركة، ولدى رؤيتها شاغرة ارتأى أن ينصب خيمه ويبقى هناك حتى الغد، وبينما هو مقبل على القيام بهذا وصل إليه الخائن سنقر مع شطر من رجاله وقال له: «لماذا تفعل هذا يا مولاي الملك؟ لقد ذهب سيدنا منكوتمر»، فأجابه الملك بأنه رغب في العسكرة هناك، لإمضاء الليل، لأن رجاله أنهمكهم التعب وأضناهم، وهنا أصر سنقر على أن البقاء سيكون خيانة وعدم إخلاص، بعدما قام رئيسهم بالمغادرة، وهكذا حدث بعد تبادل عدد كبير من الكلمات، أن صدقه الملك، وأمر رجاله بامتطاء ظهور خيولهم، ولقد ساروا طوال الليل حتى تمكنوا من العبور من المكان الذي أزالوا منه خيمهم، غير أنهم لم يجدوا منكوتمر وتوقف الملك لوقت قصير لإراحة خيوله، وهنا تابع سنقر سيره على طريقه، ثم انعطف الملك

وأخذ الطريق نحو بلاده، واجتاز خلال الأراضي القاحلة، حيث لم يكن هناك لا عشب ولا ماء، ولهذا السبب مات عدد كبير من خيوله ومن أصحابه، بسبب العطش على الطريق، أو هلكوا بسبب المشاق التي عانوا منها، وظل الحال هكذا حتى وصل إلى مملكته أخيراً وهو سالم معافى، ولكن في حالة مأساوية، في حين جرح كثير من أتباعه الذين ساروا خلفه أنفسهم ووصلوا بعدما بذلوا غاية جهدهم، هذا وقام رجال سنقر بسرقتهم وهم على الطريق، وجردوهم من كل شيء كان معهم، ولم يتركوا لهم فرساً يركبونه، وتشاور السلطان مع رجاله حول أي الطرق الأسلم له للعودة عليه، إلى مملكته، وقد أشار بعضهم عليه بأن من الممكن له المضي عبر الطريق الساحلي، من خلال أراضي الفرنجة، الذين كان بينه وبينهم هدنة، وأشار آخرون أن الأفضل هو المضي عبر البرية حيث لا يمكن للتتار العثور عليه، كما وأشار عليه آخرون بأن الأفضل هو اختيار أقصر الطرق وأكثرها استقامة، وقد وافق على رأي هؤلاء، ومن ثم سار حتى وصل إلى بلدة اسمها اللجون، حيث سلف له العسكرة هناك من قبل لدى زحفه ضد التتار، وأرسل كونت سينت سيفرين Sevrin ، وكيل عكا، عدة رسل له، ليمثلوا بجضرته حتى يتمكن من رؤية أحواله والتأكد منها، وقد وجدوا وبرهنوا أنه كان فقيراً، وبحالة عوز، والذين بإمرته قلة قليلة، وبما أن السلطان لم يكن راغباً بأن يعرف الفرنجة أوضاعه المتردية والانتكاسات التي أصيب بها، قدم إجابات لطيفة جداً إلى الكونت، وغادروا في أثناء الليل، وزحف نحو القاهرة، وقد استراح هناك عدة أيام، وأمر بفرض ضريبة على رعاياه، حيث أخذ ثلث أموال كل من كان يمتلك عشرة آلاف دينار، وأخذ من كل غني وفقير حسب أوضاعه، ولهذا انزعجت رعاياه كثيراً، وخيل إليهم أنه قد قضي عليهم بالمولت أو بالدمار، ثم أمر بالإعلان في أرجاء بلاد مصر، بأن على الذين يودون نيل أعطيائهم الذهاب إلى المرقب، لأنه سوف يذهب إلى أرمينيا

للاستيلاء عليها، وأن عليهم الاستعداد من أجل السفر، وقد أمر بالمناداة بإعلانه هذا في وقت واحد من كل أسبوع لمدة شهر، وذلك على الرغم مما قاله عدد كبير من الناس من أنه لن يغادر القاهرة بسبب خسائره العظيمة بالرجال وبالخيول.

وبالإضافة إلى هذا كله ياسيدي، لقد أمر بإعدام خمسة عشر أميراً وذلك مع الذين تخلوا عنه أثناء القتال، وقد خافت رعاياه كثيراً، وامتلات بالكراهية له، بسبب الذين خلفهم وراءه في القاهرة، وأيضاً بسبب الذين ألقاهم بالسجن، وبسبب هذه التهديدات كلها التي قام بها، وما من أحد من الناس جاء حتى الساعة، إلى القاهرة أو إلى دمشق، وأعني ساعة كتابة هذه الرسائل، ومع هذا صحيح ما قيل بأن قسطلان صفد ووكيله على نخومنا، قد جعلوا البداية الذين كانوا في المراعي على مقربة منا، ينسحبون إلى الجبال، لأنها قالوا بوجود الحفاظ على الأعشاب من أجل قدوم السلطان، ونحن نشك بأنهما قدما هذا التعليل، لكي يجعلونا نرغب بالدخول بهدنة شريرة معها، أتمنى أن يحول الرب دونها ويمنعنا من القيام بها.

وفضلاً عن هذا يا سيدي، لقد فهمنا مما سمعناه من أفواه عدد من الرجال الموثوقين، الذين قدموا مؤخراً من الجهات القائمة حول حماة، بأن هناك رعباً كبيراً هناك وفي حلب أيضاً، وكذلك في حمص، فالناس في خوف يومي من مفاجأة التتار للبلاد، لأن التتار أقسموا على القدوم بكل تأكيد، غير أننا نعتقد أن هذا لن يكون حتى نهاية الشتاء، وللأسباب المبينة، قام سلطان حماه، بعد رؤيته لهذه الأمور، بإرسال زوجته وأولاده، ومعظم ثرواته إلى مدينة القاهرة.

ومن جانب آخر، عندما علم سكان بداق Baudac ، من خلال رسالة بعث بها السلطان بأن التتار قد هزموا، قاموا بثورة ضد الحكام الذين عينهم التتار عليهم، وكان أبغاً آنذاك في البرية على مقربة منهم،

لذلك ما أن سمع بذلك حتى زحف نحو تلك المدينة واستولى عليها، وكانت هذه المدينة أثناء الثورة تابعة له، وقد جعل جميع المسلحين طعمة للسيف، وقد قطع أصابع الإبهام للرجال و..... لك أن تعلم ياسيدي، بأنهم يمدون بوساطة الإبهام.

وليس لدينا أخبار أخرى أثناء كتابة هذه الرسائل لارسالها إلى معاليكم، سوى أننا شحنا قلعتنا برهبان وبعساكر حسب حاجتنا، وفعلنا ذلك مسرعين، وقد قام مقدمنا، بناء على التماس من ملك أرمينيا، وبناء على تقويم للمحنة الشديدة التي تعرض لها ويعيش في ظلها، وبسبب أعمال النهب التي اقترفها التركمان في مملكته، منذ وقت عودته، ولقيامهم بنهب وإحراق مدينة اياس، وبلدات أخرى وقرى، لهذه الأسباب جميعاً بعث إليه بمائة خيال مع خمسين من رجال الطائفة الذين جرى اختيارهم وتسليحهم بشكل جيد، وبعث أيضاً معهم بخمسين من التوركلية، واعلموا يا سيدي أن الأرض المقدسة، لم تكن حسب ما نتذكره قط في مثل هذه الحالة التعيسة، كما هي الآن في هذا اليوم.

فهني تعاني من قلة الأمطار، ومن مختلف أنواع الأوبئة والمصائب، وقد ترك جزء كبير من مصر بدون فلاحه، خوفاً من الحرب، وللأسبب الذي ذكرناه أعلاه، ولا تعاني هذه البلاد من هذه الحالة لوحدها، بل إن كل من قبرص وأرمينيا تعيشان في الحالة نفسها... ولن يقوم ملك صقلية بإرسال أية مؤن من مملكته إلى سورية، بسبب حربه مع الإغريق، وذلك حسب ما توصلنا إليه، ولهذا يا سيدي، وحسبنا كنا قد كتبنا إلى معاليكم، إنه إذا ما عزم أي واحد من كبار اللوردات في بلادكم على القدوم إلى هذه المناطق، سيفعل خيراً إذا ما أشار على ملك صقلية بأن يسمح للمؤن لتحمل إلى سورية، حسبما جرت عليه العادة في العصور المتقدمة.

وكما تعلم ياسيدي، لم تكن الأرض المقدسة قط سهلة الاستيلاء عليها، كما هي اليوم، من قبل قادة مقتدرين معهم مخزونات كافية من الأطعمة، يضاف إلى هذا أننا لم نر فيها قط ندرة بالجند كما هي الحال الآن، وكذلك قلة الآراء الصالحة فيها، أرجو لكم ولشخصكم الجدير وجلالتكم الملكية الازدهار في كل الأوقات، وزيادة الفضل وأن تكونوا أحسن، وأرغب إلى الرب — يا سيدي — أن يفعل هذا لكم، فذلك سوف ينجز بدون أدنى شك، لو أن الرب أعطاكم الرغبة للقدوم إلى هنا، فهذا ما يعتقد جميع السكان في الأرض المقدسة، من الصغير والكبير، وبكم مع عون الرب، سوف يتم الاستيلاء على الأرض المقدسة، ووضعها في أيدي المسيحيين المقدسين.

وهذه الأخبار ياسيدي هي ويمكن أن تصدقها على الرغم من كل الأشياء الأخرى التي يمكن أن تخبر بها، ولا تؤاخذني يا مولاي لأن رسالتنا طويلة جداً، ذلك أنه من غير الممكن لنا أن نخبركم عن جميع هذه الأشياء بشكل أكثر اختصاراً، فمن أجل تأكيد الحديث عنها تركتني جلالتك هنا، لأدونها لكم.

كتبت في اليوم الأخير من أيار.

إلى الملك الأكثر نبلاً، وسمواً وعظمة، ملك إنكلترا».

ومن المحتمل أن رواية السير جوزف دي كانسي عن نصر السلطان قلاوون، مرتبطة بمناسبة إرسال الرسالة التالية من الملك إدوارد، حيث هناك مسودة لها محفوظة حتى الآن بين «الرسائل الملكية»، في مكتب الوثائق، علماً بأن تلفاً كبيراً قد ألم بهذه المسودة بسبب الرطوبة ومرور الوقت:

«من إدوارد، الذي بنعمة الرب، ملك إنكلترا، وسيد إيرلندا، ودوق أكوتين، إلى صديقه العزيز بالمسيح، وسكرتيره المخلص، الراهب

جوزيف دي كانسي، تحيات: إنه فيما يختص بالروايات التي أرسلتها إلينا في رسائلك من الأرض المقدسة، نقدم لك شكراً عظيماً، لأننا نصبح أكثر سروراً كلما سمعنا أخباراً جيدة عن تلك البلاد وعن أوضاعها، وهو الأمر الذي نرغب مخلصين ونود أن نسمع عنه بشكل متواتر أكثر، وبما أنك ترغب في أن تسمع تقارير مسرة عن مملكتنا، إننا نوضح لكم — من أجل أن نزيد في سروركم — أننا في اليوم الذي نعمل فيه هذه الهدايا، نحن ومملكتنا وأولادنا — شكراً للعلي الأعلى — بازدهار، وبصحة كاملة بالجسد، وهذا أمر نود أن تعلمه بنفسك بوساطة العلاقات الصحيحة لا الفاسدة، وبالنسبة للمتبعي تسلمناه بيد مسرورة وتسلمنا هديتك للسنة الجديدة من المجوهرات التي أرسلتها لنا، ونذكر أيضاً: سرجين قوقازيين، وغطاء سرجين، وقبعتي بازيار ألمانيتين، وأربع قبعات بازيار، اللائي نبعث إليكم مقابلهن، بشكرنا العظيم، ونرغب في أن تعلم أننا لم نعد هذه الهدايا هدايا صغيرة، لأننا قدرنا هنا النوايا الطيبة للمرسل أكثر من الهدايا نفسها التي أرسلت هذه المرة، ولا نريد في الوقت الحالي أي مزيد من القبعات بسبب القضايا الشاقة لمملكتنا، والتي هي شغلنا الشاغل المباشر، ولا نرغب بالاحتفاظ بمزيد من البزاة أكثر مما هو لدينا، أما بالنسبة لأحجار الياقوت التي أرسلتها لنا.... ولأننا نرغب كثيراً في أن تكون قريباً منا من أجل سلواننا وراحتنا، فإننا نأمرك ونطلب منك أن تسرع بقدمك إلى إنكلترا، بأفضل الوسائل التي يمكنك استخدامها وأسرعها، وبما أننا نثق بك تماماً، إنك لن تفقد في أي حال من الأحوال... من الاستبارية في إنكلترا، أو ممتلكاتهم التي سوف نحافظ عليها ونرعاهها، بقدر ما نستطيع بوساطة القانون، وذلك حسبما طلبت، وفيما يتعلق بأملاكك، التي نتمنى أن تكون مزدهرة تماماً، إننا نرغب في أن تكون متأكداً أنها محط عنايتنا المتوالية.

صدرت في دوركستر في اليوم العشرين من أيار، في السنة العاشرة من حكمنا» (١٢٨٢).

ويتفق كل من هيتوم والمقريري على القول بأن المعركة تمخضت عن نصر عظيم للسلطان، وهو أمر لم ينكره دي كانسي تماماً، لأنه حين أعلن أن ما من أحد من الطرفين قد انتصر، اعترف بأن قلاوون كان الأخير بالتراجع، وهذا طبعاً يوثق نصره بعض التوثيق.

ومهما يكن من أمر، إن ما قدمه دي كانسي له قيمة رفيعة، لأنه كان عسكرياً، ومعاصراً، وليس من المستبعد شهوده للقتال، وبناء عليه يمكن الركون إلى روايته واعتمادها أكثر من رواية أي مؤرخ أو راهب أو رجل علماني، كتب وهو بعيد عن روايات الآخرين، وبعيد زمنياً بسنوات عن الحادثة، ففي حال المقريري قد كتب بعد قرن أخبار المعركة، أو بعد أكثر من ذلك.

وكان ابن عبد الظاهر، رئيس ديوان الانشاء، أيام السلطان قلاوون قد أكد انتصار قلاوون لدى حديثه عن وقائع سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م: «وفي هذه السنة تواترت الأخبار بموت أبغا بن هلاون، وذلك لما ناله عقيب كسرة منكوتر من رعب وخوف، ولما شاهده من هول، بقتل عساكره وأكابر المغل» (١).

وكان أبو الفداء صاحب حماء من أقرب الناس زمنياً وموقعاً من هذه المعركة وقد كتب عنها مايلي:

«ذكر الواقعة العظيمة مع التتر على حمص في هذه السنة — أعني سنة ثمانين وستمائة، في شهر رجب كان المصاف العظيم بين المسلمين وبين التتر بظاهر حمص، فنصر الله تعالى فيه المسلمين بعدما كانوا قد أيقنوا

١ — تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور — ط. القاهرة ١٩٦١. ص ٣

بالبوار.

وكان من حديث هذا المصاف أن أبغا بن هولاکو حشد وجمع وسار بهذه الحشود طالباً الشام، ثم انفرد أبغا المذكور عنهم، وغنم وسار إلى الرحبة، وسير جيوشه وجموعه إلى الشام، وقدم عليهم أخاه منكوتمر بن هولاکو، وسار إلى جهة حمص، وسار السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي بالجيوش الإسلامية من دمشق إلى جهة حمص أيضاً، وأرسل إلى سنقر استدعيه بمن عنده من الأمراء، بحكم ما استقر بينهما من الصلح واليمين، فسار سنقر الأشقر من صهيون، فلما نزل السلطان بظاهر حمص، وصل إليه الملك المنصور صاحب حماه بعسكره، ثم وصل سنقر الأشقر، وصحبته ايتمش السعدي، والحاج اذمر، وعلم الدين الدويداري، وجماعة من الظاهرية، ورتب السلطان عسكره ميمنة وميسرة، وكان رأس الميمنة الملك المنصور محمد، صاحب حماه بعسكره، ثم بدر الدين البيسري دونه، ثم علاء الدين طبرس الوزيري، ثم أيك الأفرم ثم جماعة من العسكر المصري، ثم عسكر الشام ومقدمهم حسام الدين لاجين، نائب السلطنة بالشام، وكان رأس الميسرة سنقر الأشقر، ومن معه، ثم بدر الدين تتليک الايدمري، ثم بدر الدين بكتاش أمير سلاح، وكان بر الميمنة العرب، وبر الميسرة التركمان، وكان شاليش القلب حسام الدين طرنطاي، نائب السلطنة ومن أضيف إليه من الأمراء والعساكر.

والتقى الفريقان بظاهر حمص في الساعة الرابعة من يوم الخميس رابع عشر رجب الفرد من هذه السنة، أعني سنة ثمانين وستمائة، وأنزل الله نصرته على القلب والميمنة، فهرب من كان قبالتهم من التتر، وركبوا قضاهم يقتلونهم، وكان منكوتمر قبالة القلب، فانهزم أيضاً، وأما ميسرة المسلمين فإنها انكشفت عن مواقعها، وتم ببعضهم الهزيمة إلى دمشق، وساق التتر في إثر المنهزمين حتى وصلوا إلى تحت حمص، ووقعوا في

السوقية وغللمان العسكر والعوام، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم علموا بنصرة المسلمين، وهزيمة جيشهم، فولى المذكورون أيضاً منهزمين على أعقابهم، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وكانت عدة التتر ثمانين ألف فارس، منهم خمسون ألفاً من المغل، والباقي حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والأرمن والعجم وغيرهم.

ولما وصل خبر هذه الكسرة إلى أبغا وهو على الرحبة يحاصرهما، رحل عنها على عقبه منهزماً، وكتب بهذا الفتح العظيم إلى سائر البلاد الإسلامية، فزينت لذلك، ثم إن السلطان الملك المنصور قلاوون أعطى الدستور للعساكر الشامية، فرجع الملك المنصور محمد صاحب حماه إلى بلده، ورجع سنقر الأشقر وجماعته إلى صهيون، وسار عسكر حلب إليها، وعاد السلطان إلى دمشق والأسرى والرؤوس بين يديه».

ونص أبي الفداء هذا هام، ويساعدنا على فهم ما حدث في المعركة، ومن الممكن على ضوءه التعامل بشكل أفضل مع نص دي كانسي، وأيضاً على معالجة دور سنقر الأشقر.

وكان ابن حبيب الحلبي قد كتب عن سيرة قلاوون وأولاده، كتاباً أسماه «تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه»، والذي أورده ابن حبيب في أحداث سنة ثمانين وستائة هام جداً، ويساعد أكثر على التعامل مع مادة دي كانسي، وقد قال:

«في شهر رجب منها، كان المصاف العظيم بين المسلمين وبين التتار، بظاهر حمص، وسببه أن أبغا خان بن هولاقو ملك التتار جمع وحشد، وسار إلى جهة الشام، وكانوا نحو ثمانين ألفاً، ثم انفرد أبغا وذوهم إلى الرحبة، وجهاز جيشه، والمقدم عليهم أخوه منكوتر إلى جهة حمص، وسار السلطان عز نصره بالجيش الإسلامي، من دمشق المحروسة، وكان قدم إليها، وهم نحو خمسين ألفاً، ورأس اليمين الملك المنصور

محمد بن أيوب، صاحب حماه، ورأس الميسرة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والتقى الفريقان، واشتدت الحرب، فاستظهر العدو أولاً، وكسروا الميسرة، واضطربت الميمنة، وثبت السلطان بمن حوله من الأبطال، واستمروا إلى بعد العصر، وكثر القتل، وأشرف المسلمون على خطة صعبة، ثم تناخى الكبار، وحملوا على التتار عدة حملات، وأنزل الله النصر، وجرح منكوتمر، فانهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، ودقت البشائر، وبقي السلطان واقفاً إلى أن نزل بعد هوي من الليل، وظفروا بالعدو المخذول.

ثم أذن السلطان للعساكر الشالية فانصرفوا، ورجع هو إلى دمشق المحروسة، والأسرى تقاد بين يديه، ثم عاد إلى الديار المصرية مؤيداً منصوراً، ولما بلغ الملك أبغا خبر الكسرة، وهو على الرحبة يحاصرها، نكص على عقبه منهزماً، وكفى الله شرهم بمنه ولطفه» (١)

١ — تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه — ط القاهرة ١٩٧٦ ج ١ ص ٦٢ —